

# بعض مظاهر التضامن والتكافل الاجتماعي بواحات جنوب شرق المغرب وادي دادس نموذجا

محمد حمام

كلية الآداب — الرباط

من أهم السمات التي طبعت التاريخ الاجتماعي لبواحات جنوب شرق المغرب خاصة في تافيلالت وحوض درعة ودادس، التضامن والتكافل الاجتماعي اللذان أفرزتهما عدة عوامل جغرافية وتاريخية واقتصادية وثقافية لا يتسع المقام للخوض فيها بتفصيل. غير أن ما يثير انتباه الباحث أو الدارس هو أن التضامن والتكافل الاجتماعي تعددت مؤسساتهما ومظاهرهما في مجتمعات هذه المناطق إلى درجة تُمكننا من القول بأنهما كانا يشكلان الرباط الاجتماعي القوي الذي كان يربط بين مختلف شرائح المجتمع في كل وقت وحين.

ولعل من أبرز المظاهر الأساسية لتضامن السكان فيما بينهم التعاون والتآزر الجماعي المسمى تَوِيزِي أو التوزيع. وكما هو معلوم فهذا النوع من التعاون الجماعي لا تنفرد به هذه المناطق وحدها، بل هو منتشر ومعروف في كثير من مناطق المغرب الكبير. وتَوِيزِي أو التوزيع هي تعبئة جماعية تطوعية ينخرط فيها السكان لتقديم مساعدة ما على شكل عمل لفرد من أفراد المجتمع ليس بمقدوره وحده القيام بانجاز ذلك العمل. وهذه المساعدة الجماعية كان يستفيد منها الجميع — بالتناوب — وكانت تهم الأشغال الفلاحية كالحرث والحصاد والدراس وكنس مجاري المياه؛ وكانت تهم في أحيان أخرى بعض الأعمال الغير الفلاحية كالبناء مثلا. بيد أن التوزيع فقدت شيئا فشيئا طابعها التطوعي مع بداية التغلغل الاستعماري لتصبح عملية إكراهية كان يستعملها ذوو السلطة والجاه من قواد

وشيوخ لإنجاز أعمالهم الشخصية<sup>(1)</sup>. والملاحظ أيضا أن التوزيع قد تراجع دورها خلال العقدين الأخيرين بفعل التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي شهدتها مناطق جنوب شرق المغرب.

ومهما يكن من أمر، فالتوزيع ليست المؤسسة الوحيدة للتضامن والتعاون بهذه المناطق، بل هناك مؤسسات أخرى ترعاه وتتميز بها مجتمعاتها. والأمثلة التي سأسوقها هي أمثلة رصدتها في منطقة دادس الواقعة غربي تافيلالت التي تتشابه معها في كثير من الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

تتميز هذه المنطقة — كباقي مناطق جنوب شرق المغرب — بوفرة مؤسساتها التي ترعى التضامن والتكافل الاجتماعي منها ما هو ذو طابع ديني. ومن أهم هذه المؤسسات مؤسسة تسمى البروك. والبروك هو تصحيف لكلمة البركة العربية، تطلق بوادي دادس على مقدمات بعض الأعياد الدينية يقوم أثناءها أهل القبيلة أو القصر بذبح بهيمة يقسمون لحمها فيما بينهم، ويتم ذلك قبل يوم واحد من حلول عيد الفطر، وعيد المولد النبوي الشريف، وليلة القدر، وكذا صبيحة يوم عرفات المعروف محليا بإمعرفا. يتفق أهل القبيلة مسبقا مع البائع على ثمنها وعلى أمد أجل الأداء الذي عادة ما يكون بعد جني محصول من المحاصيل كالحبوب (الشعير والقمح والذرة) أو الفواكه (التين واللوز) أو محاصيل أخرى (الورد مثلا).

وحينما تُذبح البهيمة يقسم لحمها إلى ستة عشر جزءا تسمى تحريين (أي الخروبة) وتُدعى أيضا إُمُوزن مفرد أُمُوز وهذه الأقساط تقسم على العائلات المكونة للقبيلة أو القصر كل حسب مستواه الاجتماعي، إذ هناك بعض العائلات التي تأخذ أكثر من خروبة واحدة، في حين هناك عائلات أخرى تشترك في الخروبة الواحدة. ويكلف إمام مسجد القبيلة بتقييد ما بذمة كل واحد من دين في قائمة تسمى زَمَام (أي الزمام) ويأخذ في مقابل ذلك قلب الذبيحة. أما الأسقاط ورأس البهيمة وجلدها فتباع عادة بالمرزاد العلني أمام الملائ<sup>(2)</sup>.

---

(1) اهتم بعض الباحثين الفرنسيين أيام الاستعمار بدراسة هذه الظاهرة المتأصلة في مجتمعات شمال إفريقيا. وقد ناقشت الأستاذة رحمة بورقية أبحاثهم في دراسة قيمة. انظر مادة التوزيع، معلمة المغرب، ج.ص 2652، ص 2653.

(2) انظر محمد حمام، مادة البروك، معلمة المغرب، ج 4، ص 1209.

وتبركا بهذه المناسبات الدينية تطعم بعض العائلات الموسرة في القبيلة الطعام أثناءها، فتأتي بأطباق من الكسكس إلى المسجد ليتناوله المصلون من أفراد القبيلة وطلبتها الذين يحيون ليلة القدر إلى طلوع الفجر إذا كانت الليلة ليلة القدر. أما في سائر الأعياد الأخرى فيؤتى بالطعام إلى المسجد خلال النهار.

وجدير بالملاحظة أن الذبيحة التي تذبح يوم 26 رمضان من كل سنة احتفاءا بليلة القدر المباركة تكون دائما ثورا. وهذا الثور كما يدل عليه اسمه أزرُكْرُ تُتْقِبِلْتُ أي ثور القبيلة يكون محط عناية خاصة من طرف جميع السكان قويمهم وضعيفهم علما بأن الذين لهم أبقارا يستغلونه في نسلها.

وواضح مما تقدم، أن مختلف الأعياد الإسلامية هي مناسبات يستغلها سكان دادس للتعبير عن تضامنهم فيما بينهم غنيهم وفقيرهم وذلك عن طريق إشراك الجميع في أخذ نصيب من لحم الذبائح التي يُضْحَى بها في هذه المناسبات.

غير أن المناسبات الدينية ليست وحدها المناسبات التي يشترك فيها السكان للقيام بمثل هذا العمل الجماعي (أي ذبح الهائم) إذ بين الفينة والأخرى يقومون بتنظيم ما يسمى بلوزيعة أو الوزيعة التي هي أيضا شكل من أشكال التضامن الاجتماعي. والوزيعة بهذا المعنى معروفة أيضا في كثير من مناطق المغرب بما في ذلك منطقة تافيلالت.

ومن بين هذه المؤسسات الاجتماعية المعروفة في دادس والتي تكتسي طابعا دينيا ما يسمى بـ«أَدْوَالُ نُطَّلَبَا» الذي يعني حرفيا تجوال الطلبة. والطلبة هم حملة كتاب الله تعالى. ففي فصل الخريف من كل سنة ينظم فقهاء وحفاظ كتاب الله بدادس جولة دينية عبر المنطقة يتنقلون خلالها بين القصور بقيادة أحد شيوخهم يعينونه لهذا الغرض، ويحلون ضيوفا على سكان تلك القصور إما بدءا من عالية الوادي إلى السافلة أو العكس صحيح، إذ يتغير ذلك من سنة إلى أخرى. يشترك السكان بشكل جماعي في استقبالهم بكل ما يتطلب ذلك من شراب وتغذية تليق بهم يقدمونها على شكل وجبات تختلف أهميتها حسب اختلاف أهمية الموارد الاقتصادية لتلك القصور. فهناك قصور يستغرق مقامهم فيها يوما ونصف اليوم، وهناك قصور أخرى لا يتعدى المقام فيها يوما واحدا أو نصف اليوم. وقبل مغادرة القصر في اتجاه القصر الموالي يقوم السكان — كل على قدر استطاعته — بتقديم

كمية من المحصول غالبا ما تكون قدرا من محصول التين الذي يشكل الفاكهة الأساسية في هذه الربوع. وموازة مع جمع المحصول يقوم الفقهاء بتلاوة القرآن والدعاء الصالح للسكان. وحينما ينتهي التجوال يجتمع الفقهاء والطلبة في منزل مقدمهم لتقسيم ما تجمع لديهم من مال. وبعدها يذهب كل واحد إلى حال سبيله في انتظار السنة المقبلة.

إلا أن الملاحظ هو أن هذا التجوال توقف في السنين الأخيرة لأسباب متعددة لا يتسع المقام لدراستها بعمق وتفصيل.

ومهما يكن، فإذا كان سكان دادس يقومون بهذا العمل الإحساني فإنما كانوا يقومون به إجلالا وتعظيما للقرآن الكريم من جهة، ومن جهة أخرى تضامنا ومساندة مادية ومعنوية لحملة من أبناء المنطقة.

وجدير بالذكر أن تقدير واحترام السكان لحملة القرآن والعلم يتجلى كذلك في كون سكان القصور التي توجد بها مدارس قرآنية يقومون برعاية الطلبة الطارئين عليها لمتابعة الدراسة بها فيقدمون لهم التغذية اليومية اللازمة ابتغاء مرضاة الله تعالى إلى أن يستكملوا حفظ الكتاب العزيز. وهذا العمل الإحساني هو أيضا شكل من أشكال التضامن والرعاية الاجتماعية، وهذه الرعاية لهذا الصنف من الناس نجدها أيضا في مناطق أخرى من المغرب.

وإلى جانب هذا النوع من التكافل الاجتماعي ذي الطابع الديني، إن صح التعبير، هناك مظاهر أخرى له تتمثل في وجود ما يسمى بتكلمي نئيون في بعض القصور. وهذه المؤسسة كما يدل عليها اسمها «منزل الضيوف» مخصصة لإيواء ضيوف القصر أو القبيلة، وهؤلاء الضيوف يمكن أن يكونوا طلبة علم أو شعراء جوالين ومختلف الزوار الذين قد يتوافدون على القصر أو القبيلة من حين لآخر. أما تسيير هذه المؤسسة فيقننه عرف معروف لدى الجميع.

ومن مظاهر تضامن السكان فيما بينهم وجود الراعي الجماعي الذي يقوم برعي ماشية سكان القصر وذلك وفق شروط معينة. وهذه المؤسسة الجماعية ينخرط فيها سواء من له قطيع مهم أو من لا يملك سوى رؤوس معدودة من الماشية.

أشرت قبل قليل إلى الشعراء الجوالين أو من يسمون «إمديازن»، فهؤلاء حينما يترّون بالمنطقة يستقبلهم السكان بحفاوة مقدمين لهم التغذية اللازمة والمساعدة المادية. ومقابل ذلك يمتعونهم بشعرهم وإنتاجهم المسرحي الذي كثيرا ما يكون موضوعه له علاقة بالقضايا الاجتماعية المعاشة آنذ. وهكذا فاستقبالهم هو أيضا شكل من أشكال التضامن مع هذه الشريحة من المجتمع.

ومن جملة مظاهر التضامن الطريفة في وادي دادس ما يسمى بَيَّائُو. وهو تضامن بهم بالخصوص الأطفال المراهقين، يكون على شكل تقليد سنوي يتم في ليلة عاشوراء، ويتمثل في قيام الأطفال بالطواف تلك الليلة عبر أزقة إغرم (القصر) طارقين أبواب المنازل مرددين جماعة بصوت عال أغنية خاصة تسمى بَيَّائُو. وأثناء تجوالهم تزودهم ربات البيوت بما تيسر لديهن من الدقيق. وحينما ينتهي الطواف ينصرف كل واحد إلى حال سبيله على أن يجتمعوا مجددا صباح اليوم الموالي الذي يصادف يوم عاشوراء. وخلال هذا الاجتماع يطلبون من إحدى نساء القصر (إغرم) أن تهئ لهم خبزا من ذلك الدقيق الذي جمعه بالأمس. وموازة مع ذلك يقومون بتحضير مرق يشاركون فيه جماعة، فهذا يوقد النار وهذا يأتي بالقدر وذاك يأتي بشيء من الخضرة والآخر يأتي بشيء من الزيت أو اللحم. وهكذا يحضرون وليمة خاصة بهم وبمشاركة الجميع. بيد أن بعض الطقوس المصاحبة لاحتفال بَيَّائُو في وادي دادس تتميز بها بعض القصور عن غيرها<sup>(3)</sup>.

وسكان وادي دادس كانوا ولا يزالون يتضامنون فيما بينهم في السراء والضراء ويظهر ذلك خاصة في الأعراس والمآتم، فتراهم يقدمون مختلف أنواع الخدمات قبل وأثناء العرس للعائلة التي يعينها الأمر. فالنساء يقمن جماعة بتنقية الزرع الذي منه تُحضّر وجبات الحفل. كما أنهن يقمن بكافة الطقوس الأخرى المرتبطة بالعرس علما بأن بعضهن يقدمن خدماتهن في المطبخ أثناء العرس. أما الرجال فهم بدورهم يساهمون في العرس كل حسب استطاعته، فهذا يأتي ببعض اللوازم من داره كالمفروشات وبعض الأواني، وذاك يساعد في تحضير المأكّل للمدعوين إلخ... إذن فالعرس بهذا المعنى هو أيضا تعبئة جماعية، وهذه الظاهرة لا ينفرد بها وادي دادس بل نجدها كذلك في تافيلالت وفي مناطق أخرى من المغرب.

(3) انظر محمد حمام، مادة «بيانو»، معلمة المغرب، ج 6، ص 1912.

ومن بين الطقوس الأخرى المميزة للعرس في وادي دادس ما يعرف بأزْزِري تُسَلِّيث الذي هو نشيد تردده النساء والرجال — بالتناوب — بصوت عال، يتعلق موضوعه بعرض أخلاق ومؤهلات العروس. وهذا الطقس عادة ما يتم في الصباح الباكر قبيل شروق الشمس. وبعد الانتهاء من الغناء يقدم للحاضرين طبق من الطعام يسمى «بَرْكُوس» وهو نوع من الفداوش المصنوع محليا من دقيق الشعير. وتقتضي العادة أن يُطبخ في إناء كبير من نحاس يطلق عليه اسم تَفَنَّا. وقبل تناوله من طرف الحاضرين يكون هذا الطبق محط طقس يحمل اسم أسْغَل نُوضَار أي قياس الرُّجل. ومؤداه أن العروس ترفع رجلها اليمنى فوق تَفَنَّا (الطبق)، وأثناء ذلك تقوم بعض النساء باستدارة خيط أحمر من الصوف على قدم العروس أعد خصيصا لهذا الغرض، في حين أن البعض الآخر منهن يزغردن. وبعد القيام بهذا الطقس يقدم الطبق للحاضرين ليأكلوا منه بصفة جماعية. وللعلم فقبل تقديم هذا الطبق للحاضرين تجعل في وسطه حفرة (تَمَنَاط) ثملاً سمنا جاريا (أودي إفسين) يغمس فيه آكلوه لقماتهم.

أما حينما يتوفى شخص ما فإن كافة سكان القصر يقومون بإعانة أسرته فيقدمون لها المؤونة اللازمة طيلة أيام العزاء الرسمية التي هي ثلاثة أيام. وهذا التضامن يساهم فيه الجميع ويستفيد منه الجميع ولا يستثنى منه أحد كيفما كانت وضعيته الاجتماعية.

تلك هي بعض مظاهر التضامن والرعاية الاجتماعية المعروفة بوادي دادس، صحيح أن بعضها تراجع خلال العقود الأخيرة لأسباب مختلفة. لكن البعض الآخر منها ظل مستمرا ويتشبت به السكان إلى اليوم. وإذا كانت للأمثلة التي وقفت عندها دلالات فإنها تكمن في كونها تُبرز أن التضامن والتكافل الاجتماعي شكلا ويشكّلان أهم مقومات الحياة الاجتماعية في هذه المنطقة وفي غيرها من مناطق جنوب شرق المغرب، وتبرز أيضا أن التعاون والتآزر الجماعي كان أداة فعالة تخفف ليس فحسب من حدة الفوارق الاجتماعية والنزعات الداخلية، ولكنها أيضا كانت تخلق التجانس بين السكان. وهذا التجانس هو الذي كان يجعلهم متماسكين ويقظين باستمرار لمواجهة كل الأخطار المحتملة. وقد تمثل ذلك خاصة في الوقوف صفا واحدا أمام الاستعمار الفرنسي سواء في بودنيب أو في تافيلالت أو في بادو

أو في صاغرو وغيرها من المعارك التي خاضوها في سبيل حريتهم وكرامتهم وسلامة  
ووحدة أراضي وطنهم. وهكذا نخلص إلى القول، أن مجتمعات واحات جنوب  
شرق المغرب هي مجتمعات ترسخت فيها هذه الفضائل النبيلة التي كانت مصدرا  
من مصادر قوتها ومناعتها عبر التاريخ.

